

من كتاب "أصداء الأصداء" تقاسيم على أصداء السيرة الذاتية (نجيب محفوظ) (1 من ؟)



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2020/05/17

السنة الثانية عشرة - العدد: 4642

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

تقديم

أبدأ من اليوم في نشر بعض اجتهاداتي في نقد هذا العملاق المصري الطيب نجيب محفوظ، وهي كثيرة، وكان بودي أن أوصي القارئ الفاضل أن يقرأ النص الأصلي لمحفوظ قبل أن يواصل متابعتنا، لكنني لا أعتقد أن هذا المطلب ممكن تنفيذه من الجميع ولا من أغلب المنشغلين بما هم منشغلون به - للأسف - لذلك بدأت اليوم نشر نقدي للعمل قبل الأخير "أصداء السيرة الذاتية" لأنه في فقرات، ولأنني سوف أنشر نص كل فقرة قبل قراءتها ناقدا.

أنا اسف يا عمنا فأنت عزيز على الجميع، وقد بلغني قبل الآن أنك توافق على هذه المحاولات المتواضعة.

مع خالص دعائي وابتهالي يا أيها الإنسان المصري الجميل.

يحيى

مقدمة (1) أبريل 1994

حدس الكلمة

لا أميل إلى المبالغة في إعلاء قيمة شخص فرد مهما تميز وأعطى، كما لا أحب تسمية عصر باسم شخص مهما كان هذا الشخص، وحتى كلمة عبقرى هي عندي كلمة تحتاج إلى تعريف دقيق، واستعمال حذر. لكن ماذا أفعل في شيخنا نجيب محفوظ هذا الذى يضطرنى إلى أن أفرح أننى أعيش زمنا أفرزه، ويجعلنى أكاد أخالف ما تقدم من تحفظ لأقف أمام شيخنا منبها، داعيا، فخورا متعلما، بلا حدود؟ أرجو أن يكون هذا اعتذارا لبعض المبالغات التى اضطرتتى إليها فرحتى بهذا العمل الذى أكتب هذه الكلمة عقب ظهور بداياته فى الأهرام.

هذه المقدمة الباكرا أثبتتها كما هي مع أنها مغامرة بحق، لأنها تتناول عملا مسلسلا لم يكتمل، ينشر فى عدد أسبوعى فى صحيفة يومية، وأنا لا أحب (ولم أحب) أن أقرأ قصة طويلة أو رواية مسلسلية فى أى صحيفة أو مجلة، وبالذات لنجيب محفوظ، اللهم إلا أولاد حارتنا فى الستينات التى اضطررت لقراءتها مسلسلية حين رجحت أنها قد لا ترى النور مكتملة، لكن هذا العمل ليس قصة قصيرة، وليس رواية طويلة، وليس مسلسلا، بل هو عدة روايات متداخلة، هو أصداء فعلا لوجود متعدد الأبعاد غائر الأعماق، تجد فيها ذكرى عابرة تبدو عادية، لكن حين يحكيها شيخ - بفرحة طفل - تبدورائحة وخاصة ومتميزة، كما تجد فيها رواية طويلة طولها سبعين سنة يكتبها محفوظ فى أربعة أسطر وكأنه نشال انقض على وعيك فنشل غفلته حين أضاء بسطوره الأربعة مساحة لم تكن منتبها إليها، فإذا بك أنت مؤلف هذه الرواية التى طولها سبعين سنة بالتمام.

ثم ما حكاية العنوان (أصداء)؟ ثم العناوين الفرعية؟

قبل أن أتناول العنوان تذكرت بعض ردود نجيب محفوظ حين طلب منه أن يكتب سيرته الذاتية فعقب

لا أميل إلى المبالغة في إعلاء قيمة شخص فرد مهما تميز وأعطى، كما لا أحب تسمية عصر باسم شخص مهما كان هذا الشخص، وحتى كلمة عبقرى هي عندي كلمة تحتاج إلى تعريف دقيق، واستعمال حذر.

هذا العمل (أولاد حارتنا) ليس قصة قصيرة، وليس رواية طويلة، وليس مسلسلا، بل هو عدة روايات متداخلة، هو أصداء فعلا لوجود متعدد الأبعاد غائر الأعماق

تجد فيها ذكرى عابرة تبدو عادية، لكن حين يحكيها شيخ - بفرحة طفل - تبدورائحة وخاصة ومتميزة

كما تجد فيها رواية طويلة طولها سبعين سنة يكتبها محفوظ فى أربعة أسطر وكأنه نشال انقض على وعيك فنشل غفلته حين أضاء بسطوره الأربعة مساحة لم تكن منتبها إليها

تذكرت ما سمعته من أنه

كيفه تزوج سرا تقريبا، ولم يعرفه بعض أصدقائه نبدأ زواجه إلا حين اكتشفوا أن فتاة في مدرسة ابتدائية إسمها أم كلثوم نجيب محفوظ

إنما أنا أراه في، كل أعماله بلا استثناء (ولا استثناء: حتى ليالي ألف ليلة، ورأيت فيما يرى النائم)

حين كتبت عن الشحاظ تلك الكتابة الباكورة التي نسختها بعد ذلك، قلت إنه وصف ما هو أكتئاب وصفها يستحيل أن يعرفه إلا من كابدته، وإلى درجة أقل: قد يعرفه طبيب نفسي قديم حاذق

هذا الرجل الذي رفض أن يكتب سيرته الذاتية، هو هو الذي لم يكتبه - كما استقبلته طوال رحلته - إلا سيرته الذاتية

ها هو يخرج علينا في سن الواحد والثمانين، وقد ثقل سمعه وكاد يكفه بصره، يتكلم وكأنه يهمس في هدوء، لكن همسه يظل يتردد صدها متصاعدا في وديان غفلتنا يهز جبال الصمت، ويتعنت الوعي المتجمد مما يحتاج إلى وقفة مناسبة

حين أنفرد بنفسى هناك، أبدأ بنداء أن: "ها" فأرد على أن: "ها" "ها" "ها"، ثم آه آه فيأتي الرد: آه. آه. آه. ثم يحيى، يحيى، يحيى، يحيى، ثم يا رب، وحين أصل إلى يا رب،

بما بدا أنه تواضع، وهو ما استقبلته على أنه يقظة من يخاف على كثره الخاص الذي لا يعرف قيمته إلا هو: أن يوضع في غير موضعه، قال ما أذكر معناه: إنه رجل مصرى من عائلة قاهرة متوسطة ليس في حياته الخاصة ما يستأهل الانتباه والتسجيل فيما هو سيرة ذاتية، ثم تذكرت ما سمعته من أنه كيف تزوج سرا تقريبا، ولم يعرف بعض أصدقائه نبدأ زواجه إلا حين اكتشفوا أن فتاة في مدرسة ابتدائية إسمها أم كلثوم نجيب محفوظ، وأخيرا تذكرت ألمه الذي كاد يصل إلى غضب رافض (وهو نادرا ما يثور في أحاديثه) حين عقب على نيله جائزة نوبل أنها كانت - أيضا - سبيلا إلى انتهاك خصوصياته بشكل أو بآخر، كل ذلك يعلن أن نجيب لا يريد ولا يقر وربما لا يستطيع أن يرصد أو يسرد ما يسمى "سيرة ذاتية".

لكنني عدت أسترجع علاقتي بكل أعماله فوجدت أنني لم أر فيها إلا نجيب محفوظ شخصيا، ليس فقط كمال عبد الجواد (الثلاثية) كما يزعم البعض، وهو ما أشار إليه إحسان عبدالقدوس حتى كادت تحدث القطيعة بينهما، وليس ما استشهد به جمال الغيطاني في "نجيب محفوظ يتذكر"، وإنما أنا أراه في، كل أعماله بلا استثناء (بلا استثناء: حتى ليالي ألف ليلة، ورأيت فيما يرى النائم)، وحين كتبت عن الشحاظ تلك الكتابة الباكورة التي نسختها بعد ذلك، قلت إنه وصف ما هو أكتئاب وصفها يستحيل أن يعرفه إلا من كابدته، وإلى درجة أقل: قد يعرفه طبيب نفسي قديم حاذق،

هذا الرجل الذي رفض أن يكتب سيرته الذاتية، هو هو الذي لم يكتب - كما استقبلته طوال رحلته - إلا سيرته الذاتية، وها هو يخرج علينا في سن الواحد والثمانين، وقد ثقل سمعه وكاد يكف بصره، يتكلم وكأنه يهمس في هدوء، لكن همسه يظل يتردد صدها متصاعدا في وديان غفلتنا يهز جبال الصمت، ويتعنت الوعي المتجمد مما يحتاج إلى وقفة مناسبة.

## وهذه هي .

سوف أكتفى في هذه "المقدمة" بوقفة عند اختيار عنوان العمل "أصداء"، وكيف قرأت حضور حدس هذه الكلمة في وعي هذا الرجل بما يذكرنا بموقع الكيان اللغوي للمبدع كمستوعب لتاريخ حي يتمثل في حدس فائق في لحظات بذاتها.

حين قرأت العنوان وقبل أن أتحمس طريقي في وديانه، وأيضا قبل أن أتوكل على أدواتي في مساعد دروب جباله، حضرني وعي خاص لا يحضرنى إلا وسط الجبال، أذكر أنني استشعرت مثل هذا الوعي لأول مرة بوضوح كاف، في فالورسين قرب قمة مون بلان في جبال الألب، ثم عدت أستشعره أعمق وأقرب في شتاء سانت كاترين حيث الثلج الهش يذكرني أن مصر هي "كل الدنيا" وليست فقط "أم الدنيا"، حين أنفرد بنفسى هناك، أبدأ بنداء أن: "ها" فأرد على أن: "ها" "ها" "ها"، ثم آه فيأتي الرد: آه. آه. آه. ثم يحيى، يحيى، يحيى، يحيى، ثم يا رب، وحين أصل إلى يا رب، لا يتردد الصدى أن يا رب يا رب يا رب، وإنما يرد الصوت نعم، فأدعو بما تيسر، وأطمئن أنه "هو" وأنتى حي أرزق (فهذا أمر ليس مؤكدا طول الوقت).

## هذه هي علاقتي بالصدى

قبل أن أقرأ أصداء محفوظ تردد في وعي إيقاع دورات "ملحمة الحرافيش"، وهممات "حكايات حارتنا"، وصور "المرايا" متبادلة متلاحقة متصاعدة مجسمة.

إذن فهي أصداء حضور نجيب محفوظ في سيرته، وترددات جنبات ذاكرته، لكنها أبدا ليست سيرته أو ذاته المحدودة بوجوده الفردي البشرى.

صوت شيخنا يتردد، فترده جنبات الحضور المصرى، التاريخ: غائرة في وجداننا المحيط بوعينا، ليكن.

## هل يا ترى كان يعنى بالصدى ما يصلنى الآن من الكلمة؟

وهل يا ترى كان يعرف ما ذا يمكن أن تثير في واحد مثلى كلمة أصداء (جمع صدى)؟ وما هي حقيقة وتاريخ وتقاسيم وتفرعات ما احتوته كلمة صدى و"أصداء" من نبض وإيحاءات ورؤى؟ صدى

السيرة، صدى التاريخ، صدى الأحداث، نَعْم ما اخترت يا شيخنا؟

ثم رحت أقرأ الحلقات الأولى الثلاث<sup>(2)</sup>، فلا أجد -لأول وهلة- فى الحلقة الأولى ما يشدنى، وتهزنى الثانية أكثر قليلا، أما الثالثة فقد جعلتني أقفز وأنا أدعو له بطول العمر، وأتصور فقدته فلا أستطيع، ثم إننا لن نفقده أبدا، سوف يظل صوته وستظل أصداؤه معنا حتى نلتقى هنا أو هناك. أقول حين وصلت إلى الحلقة الثالثة فهمت أكثر معنى أنها أصداؤه فعلا لما هو سيرة ذاتية، إنها نبش فى ذاكرة يعاد تخليقها، وليست سردا لأحداث يراد ترتيبها.

رجعت إلى بعض معلوماتنا الهزيلة عن الذاكرة والتذكر، وكيف يتناولها علم النفس والطب النفسى تتاولا يسطحها لدرجة المسخ، وتذكرت ما تعلمناه فى الطب النفسى والباطنى معا، وكيف يؤثر السن على الذاكرة بالذات تأثيرا هو كذا وكيت، وكيف يؤثر تصلب الشرايين بالذات، وكيف يسرع المرض السكرى (الشهير بالبول السكرى أو السكرى فقط) بتصلب الشرايين ومن ثمّ تدهور الذاكرة، ثم ماذا يحدث للذاكرة حين يقل التواصل عبر السمع والبصر جميعا فى العقد التاسع من العمر؟ ودعوت ربي أن يرى زملائي معى ما يؤكد لهم أن كل هذا كلام لا ينبغى أن يؤخذ على علاته، وأن العقل البشرى، يحفظ الشرايين ولا يخضع لها فقط، وأن الذاكرة بتشكيلاتها الخلوية والنيورونية تظل راقنة وحادة طالما أن الإبداع نشط وهادف، ينبغى أن نقف أمام الظاهرة البشرية -خاصة للمبدعين- نتعلم من عطائها لا نفرض عليها قصور ما نتصوره عنها، ينبغى احترام تعدد مصادر المعارف، فالعلم لا يفسر الأدب بقدر ما يستلهم أعظم معارفه منه، وهذا هو نجيب محفوظ يقدم لنا بعمله هذا فى سنه هذا، بكل مرضه بالسكرى، وصعوبة سمعه، وبصره، وتصلب شرايينه، يقدم لنا ما يعلمنا عن الذاكرة ما عجزت كل تجارب العلماء وغرور بعضهم وضيق أفق الآخرين أن يعلموه أو يتعلموه أصلا، ناهيك عن أن يعلمونا إياه. وحضرنى تصور للذاكرة وأنا أكتب "الناس والطريق"<sup>(3)</sup> "فرحت أتحدى به تصنيفات الذاكرة التى علمونا إياها (الذاكرة القريبة، العاجلة، الأجلة، اللحظية إلخ) وذلك أننى اكتشفت وأنا أعيش (حالة كوني كاتباً) تجليات أخرى للذاكرة، مثل: الذاكرة التى تشرق فى الوعى، والذاكرة التى تدور، والذاكرة ذات الرائحة، والذاكرة التى تنتقى، والذاكرة التى تبدع، إلى آخر ما لا أذكر، كذلك تذكرت آلة الذاكرة التى ابتدعها "جارثيا ماركيز" فى مائة عام من العزلة يسخر بها على ما نسميه ذاكرة.

هذا هو شيخنا يعلمنا من واقع الممارسة ما ينبغى أن نعلم، فاتقوا الله يا من تقيسون الأدب بالعلم، ناهيك عن قياس الدين بالعلم!!

ثم فعلت بعد ذلك ما لا ينبغى أن أفعل، وما حاولت إثناء نفسى عنه طويلا، وهو ما أوقعتنى فى أخطاء ليست قليلة، ذلك أننى رحت أستقتى المراجع حول معنى ومضمون ما هو صدئى، وأنا حين أستقتى المراجع لا أبحث عن تعريف للكلمة بقدر ما أعيش تقاسيمها، وتاريخها، وصدى رنينها، وكان أستاذى محمود محمد شاكر قد أوصانى ألا أكتفى بلسان العرب، وأن أستشير معه تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي. قلت أتعرف على الزبيدي هذا- لأول مرة- من خلال أصداؤه محفوظ<sup>(4)</sup>، ونبهت نفسى من البداية أن محفوظ حين انتقى كلمة أصداؤه لم يستشر معجما، بل لعله لم يستشر نفسه بل سمع الكلمة قبل أن يختارها، كما أننى حين استقبلتها لم أستقبلها بتعريف أو تحديد وإنما سمعتها بدورى تتردد فى تضاريس وعيى، فلماذا المعجم، ولماذا أصر على تكرار هذه العادة الخاطئة أبدا؟ ذلك الإصرار هو الذى أدى بى ذات يوم إلى أن أحاول تفسير إسم كامل رؤبة لآظ بطل السراب، وأنا أبحث عن مادة كل من "رأب" و"لاظ"، ورغم عتبي على محفوظ فى تعمله الرمزية فى انتقاء كثير من أسماء أبطال رواياته (الأمر الذى تورطت فيه بدورى فى تسمية شخوص روايتي "المشى على الصراط" بجزأياها<sup>(5)</sup>) (إلا أننى هذه المرة كنت متأكدا أن محفوظ لم يقصد إلى أى من ذلك، ومع كل هذا فقد ذهبت أستشير الزبيدي

لا يتحدد الصدى أن يا ربه يا ربه يا ربه، وإنما يرد الصوت نعو، فأدعو بما تيسر، وأطمئن أنه "هو" وأننى حى أرزق

إذن فهى أصداؤه حضورنجيب محفوظ فى سيرته، وتحدثت عن جنابه ذاكرته، لكنها أبدا ليست سيرته أو ذاته المحدودة بوجوده الفردى البشرى

هل يا ترى كان يعرفه ما ذا يمكن أن تثير فى واحد مثلى كلمة أصداؤه (جمع صدى)؟ وما هى حقيقة وتاريخ وتقاسيم وتفريجات ما احتوته كلمة صدى و"أصداؤه" من نبض وإيحاءات ورؤى؟

رجعت إلى بعض معلوماتنا الهزيلة عن الذاكرة والتذكر، وكيف يتناولها علم النفس والطب النفسى تتاولا يسطحها لدرجة المسخ، وتذكرت ما تعلمناه فى الطب النفسى والباطنى معا، وكيف يؤثر السن على الذاكرة بالذات

أن العقل البشرى، يحفظ الشرايين ولا يخضع لها فقط، وأن الذاكرة بتشكيلاتها الخلوية والنيورونية تظل راقنة وحادة طالما أن الإبداع نشط وهادف

ينبغى أن نقف أمام الظاهرة البشرية -خاصة للمبدعين- نتعلم من عطائها لا نفرض

لأصاحب الكلمة أكثر وأعمق مغفلا - مؤقتا - علاقتي بها بين الجبال في فالورسين وسانت كاترين، وفي نفس الوقت مستعبدا تعمد نجيب محفوظ اختيارها لأسباب معجمية أو رمزية.

### وهكذا تحقق لدى فرض يقول:

إن محفوظا (ويحيى حتى - وكل مبدع اختلطت اللغة بلحمه ودمه) إذ ينقئ كلماته إنما يتخير ما يفيض به كيانه اللغوي دون علم محدد بكل أبعاد اللفظ، لكن اللفظ يتفق مع ما يراد منه بكل دقة موضوعية حين لا يكون ثمة فاصل بين الكيان الذاتي والكيان اللغوي للكاتب، وفي هذه الحال يحبس المبدع تاريخ لغته بدقة شديدة الإحكام دون أى مرجعية رمزية، وقد ذهبت أحقق هذا الفرض هذابكل تداعياته وتفسيراته الظاهرة والخفية حتى وصلت إلى ترجيح أن هذا العنوان قد حدسه نجيب محفوظ - دون قصد محدد - ليستوعب كل تلك المعاني التي أوردها الزبيدي: من أول أن نجيب هو "الرجل اللطيف الجسد" حتى صوت ذكر اليوم يخرج من قبر المقتول يطلب الثأر مارا بما يردده الجبل على المصوت فيه.

- [1] يحيى الرخاوى "أصداء الأصداء" تقاسيم على أصداء السيرة الذاتية (نجيب محفوظ) (الطبعة الأولى 2006 - المجلس الأعلى للثقافة)، و(الطبعة الثانية 2018 - منشورات جمعية الطب النفسي التطوري) والكتاب متاح في مكتبة الأنجلو المصرية وفي منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفي مركز الرخاوى: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف [www.rakhawy.net](http://www.rakhawy.net)
- [2] كتبت هذه المقدمة ولم تكن قد صدرت إلا الحلقة الثالثة.
- [3] يحيى الرخاوى: الترحال الأول: "الناس والطريق" الطبعة الأولى عام 2000، جمعية الطب النفسي التطوري والعمل الجماعي، مركز المحروسة.
- [4] ثم قررت في هذه الطبعة 2018 أن أحذف هذا الهامش تماما فهو يبلغ أكثر من صفحتين ويورد اثني عشر معنى لكلمة "صدي" كما أثبتها صاحب تاج العروس "الزبيدي" فأولى به أن يكون ملحقات، ثم قررت ألا أنشره حتى ملحقا، وعلى من يغلبه حب الاستطلاع أن يرجع إليه في الطبعة الأولى 2006 أو في موقعي [www.rakhawy.net](http://www.rakhawy.net)
- [5] يحيى الرخاوى: رواية المشي على الصراط (ج1)، "الواقعة" (ج2)، "مدرسة العراة" (ج3) "ملحمة الرحيل والعود"

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD170520.pdf>

\*\*\* \*\*

## شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيًا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2020 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار السادس)

الشبكة تطفيئ شمعها التاسعة عشرة وتدخل عامها العشرون من التأسيس

19 عاما من الصدح... 17 عاما من التواحل "

( التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13 )

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

عليها قصور ما نتصوره عنهما

ينبغي اختراع تعدد مصادر المعارف، فالعلم لا يفسر الأديب بقدر ما يستلمه أعظم معارفه منه

اكتشفني وأنا أميش (حالة كوني كاتبا) تجليات أخرى للذاكرة، مثل: الذاكرة التي تشرق في الوعي، والذاكرة التي تدور، والذاكرة ذات الرائحة، والذاكرة التي تنتقي، والذاكرة التي تدع، إلى آخر ما لا أذكر

تذكرت آلة الذاكرة التي ابتدئها "جارتيا ماركيير" في مائة عام من العزلة يسخر بها على ما نسميه ذاكرة.

اتقوا الله يا من تقيسون الأديب بالعلم، ناهيك عن قياس الدين بالعلم!!